يعني التامة على خلقه عباده {فلو شاء لهداكم أجمعين} يعني ولو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون {قل هلم شهداءكم الذين يشهدون} يعني هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة إلى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنين والجمع والذكر والأنثى وفيه لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللأنثى هلمي واللغة الأولى أفصح {أن الله حرم هذا} وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا أن الله أمرنا به ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم {فإن شهدوا فلا تشهد معهم} وهذا تنبيه أيضا على كونهم كاذبين في شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم في شهادتهم كاذبين {ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا} يعني أن وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولا تكن إلا متبعا ما أوحي إليك من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه {والذين لا يؤمنون بالآخرة} أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة {وهم بربهم يعدلون} يعني يشركون قوله عز وجل {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم} لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا أن الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم وكأنهم سألوا وقالوا أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا وتعال من الخاص الذي صار عاما وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل أصله أن يدعو الإنسان إلى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه إلى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقا يقينا لا شك فيه ولا ظنا ولا كذبا كما تزعمون أنتم بل هو وحي أوحاه الله تعالى إلى نبيه {أن لا تشركوا به شيئا} فإن قلت ترك الإشراك واجب فما معنى قوله أن لا تشركوا به شيئا لأنه كالتفصيل لما أجمله من قوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز قلت الجواب عنه من وجوه الوجه الأول أن يكون موضع أن رفع ومعناه هو أن لا تشركوا به الوجه الثاني أن يكون محله النصب واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة وقيل أن حرف لا على أصلها ويكون المعنى أتل عليكم تحريم الشرك أن لا تشركوا أو يكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين إحسانا محمول على أوصيكم بالوالدين إحسانا الوجه الثالث أن يكون الكلام قد تم عند قوله ربكم ثم قال عليكم أن لا تشركوا على الإغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيئا ومعنى هذا الإشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو أن يجعل لله شريكا من خلقه أو يطيع مخلوقا في معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقوله تعالى {وبالوالدين إحسانا} أي وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين إحسانا وإنما ثنى بالوصية بالإحسان إلى الوالدين لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله لأنه هو أخرجه من العدم إلى الوجود وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئا ثم تعقب نعمة الله نعمة الوالدين لأنهما السبب في وجود الإنسان ثم ما لهما عليه من حقوق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق} يعني من خوف الفقر والإملاق الإنفاد والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم {نحن نرزقكم وإياهم} يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم لأن الله تعالى إذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل {ولا تقربوا الفواحش} يعني الزنى {ما ظهر منها وما بطن} يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنى في العلانية

ولا يرون به

ولا يرون به بأسا في السر فحرم الله الزنى في السر والعلانية وقيل أن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنى وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وأيضا فإن السبب إذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله تعالى ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومن قبحهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لأجل خوف الله وتعظيما لأمره استوجب رضوان الله وثوابه {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق} حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها في قوله تعالى ولا تقربوا الفواحش وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما لأمر القتل وأنه من أعظم الفواحش والكبائر وقيل إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يتأتى ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك قال ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق وهو الذي يبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنى بعد إحصان وهو الذي يوجب الرجم وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وقوله تعالى {ذلكم} يعني ما ذكر من الأوامر والنواهي المتقدمة {وصاكم به} يعني أمركم به وأوجبه عليكم {لعلكم تعقلون} يعني لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها قوله تعالى {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} يعني ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه وقال الضحاك هو أن يسعى فيه ولا يأخذ من ربحه شيئا هذا إذا كان القيم بماله غنيا غير محتاج فلو كان الوصي فقيرا فله أن يأكل بالمعروف {حتى يبلغ أشده} يعني احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله وأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشباب إلى حد الرجال قال الشعبي ومالك الأشد الحلم حتى تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات وقال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبي الأشد هو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقال الضحاك الأشد عشرون سنة وقال السدي الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية إنما هي نهاية الأشد لا ابتداؤه وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية وقوله {وأوفوا الكيل والميزان بالقسط} يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان {لا نكلف نفسا إلا وسعها} يعني طاقتها وما يسعها في إيفاء الكيل والميزان فإنه لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضى بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه {وإذا قلتم فاعدلوا} يعني في الحكم والشهادة {ولو كان ذا قربى} يعني المحكوم عليه والمشهود عليه وقيل إن الأمر بالعدل في القول هو أعم من الحكم والشهادة بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التي يعتبر فيها العدل والصدق {وبعهد الله أوفوا} يعني ما عهد إلى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الإنسان على نفسه كنذر ونحوه يجب الوفاء به {ذلكم} يعني الذي ذكر في هذه الآيات {وصاكم به} يعني بالعمل به {لعلكم تذكرون} يعني لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون بما أمرتكم به قوله عز وجل {وأن هذا صراطي مستقيما} يعني وأن هذا الذي وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو صراطي يعني طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي مستقيما يعني قويما لا اعوجاج فيه {فاتبعوه} يعني فاعملوا به وقيل أن الله تعالى

الى ثلاثين سنة

المراد بالاشد في هذه الآية هو الاحتلام وبلوغ الحلم مع ايناس الرشد وهذا اصل